(**فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)**)

[يوسف : ٧٦] .

(**فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ**) لإزالة التهمة .

أي : فبدأ المؤذن بتفتيش أوعيتهم، قبل أن يفتش وعاء «بنيامين» فلم يجد شيئاً بداخل أوعيتهم ، فلما وصل إلى وعاء «بنيامين» وقام بتفتيشه وجد السقاية بداخله، فاستخرجها منه على مشهد منهم جميعاً .

(**كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ**) أي : مثل هذا التدبير الحكيم دبرنا من أجل يوسف ما يوصله إلى غرضه ومقصده، وهو احتجاز أخيه بنيامين معه، بأن ألهمناه بأن يضع السقاية في رحل أخيه، وبأن يسأل إخوته عن حكم السارق في شريعتهم.. وما كان يوسف ليستطيع أن يحتجز أخاه معه، لو نفذ شريعة ملك مصر، لأن شريعته لا تجيز استرقاق السارق سنة كما هو الحال في شريعة يعقوب، وإنما تعاقب السارق بضربه وتغريمه قيمة ما سرقه.

وما كان يوسف ليفعل كل ذلك التدبير الحكيم في حال من الأحوال، إلا في حال مشيئة الله ومعونته وإذنه بذلك، فهو سبحانه الذي ألهمه أن يدس السقاية في رحل أخيه، وهو سبحانه الذي ألهمه أن يسأل إخوته عن عقوبة السارق في شريعتهم حتى يطبقها على من يوجد صواع الملك في رحله منهم.

فقوله (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) أي : في حكمه وقضائه والكلام استئناف وتعليل لذلك الكيد، كأنه قيل: لماذا فعل؟ فقيل: لأنه لم يكن ليأخذ أخاه جزاء وجود الصواع عنده في دين الملك في أمر السارق إلا بذلك الكيد، لأن جزاء السارق في دينه أن يضاعف عليه الغرم ... دون أن يسترق كما هو الحال في شريعة يعقوب.

- **قال ابن عاشور** : والكيد : هنا هو إلهام يوسف عليه السلام لهذه الحيلة المحكمة في وضع الصواع وتفتيشه وإلهام إخوته إلى ذلك الحكم المِصْمَت.

(**إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ**) أي : أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره ؛ لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته ، حتى جرى الأمر وفق المراد .

(**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء**) استئناف لبيان قدرة الله تعالى وسعة رحمته وعطائه.

أي: نرفع من نشاء رفعه من عبادنا إلى درجات عالية من العلوم والمعارف والعطايا والمواهب...كما رفعنا درجات يوسف عليه السلام.

قال بعض العلماء : بالعلم والإيمان .

(**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**) أي : فوق كل عالم من هو أعلم منه حتى ينتهي الى ذي العلم البالغ وهو (رب العالمين) .

قال الحسن : ليس عالم إلا فوقهَ عالم حتى ينتهي العلم إلى الله ، وقال ابن عباس : الله العليم الخبير فوق كل عالم .

قال الشوكاني (وَفَوْقَ كُلّ ذِي عِلْمٍ) ممن رفعه الله بالعلم (عَلِيمٌ) أرفع رتبة منهم وأعلى درجة لا يبلغون مداه، ولا يرتقون شأوه.

وقيل : معنى ذلك أن فوق كل أهل العلم عليم وهو الله سبحانه.

الفوائد :

١-قال الرازي : واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات ، لأنه تعالى لما هدى يوسف إلى هذه الحيلة والفكرة مدحه لأجل ذلك فقال (نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء) وأيضاً وصف إبراهيم عليه السلام بقوله (نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء) عند إيراده ذكر دلائل التوحيد والبراءة عن إلهية الشمس والقمر والكواكب ووصف ههنا يوسف أيضاً بقوله (نَرْفَعُ درجات مَّن

نَّشَاء) لما هداه إلى هذه الحيلة وكم بين المرتبتين من التفاوت.

قال السمرقندي : العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات .

٢- جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعا ثابتا» «٢» .

٣-كيد يوسف لإخوته بتدبير من الله .

(قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩)) .

[يوسف : ٧٧- ٧٩] .

(قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ) أي : قال إخوة يوسف عليه السلام بعد هذا الموقف المحرج لهم. إن يسرق بنيامين هذا الصواع الخاص بالملك فقد سرق أخ له من قبل- وهو يوسف- ما يشبه ذلك.

وقولهم هذا يدل على أن صنيعهم بيوسف وأخيه ما زال متمكنا من نفوسهم.

وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة في مرادهم بقولهم هذا :

قيل : كان يوسف قد سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره .

وقيل : أن عمته كانت تحبه حباً شديداً فأرادت أن تمسكه عند نفسها ، وكان قد بقي عندها منطقة لإسحاق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف ثم قالت بأنه سرقها وكان من حكمهم بأن من سرق يسترق ، فتوسلت بهذه الحيلة إلى إمساكه عند نفسها.

وقيل : أنهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة بالغضب على يوسف بعد تلك الوقائع ، وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة .

(فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ) أي : أخفى تلك القولة في نفسه وكتمها ولم يُظهرها لإخوته تلطفاً معهم .

(قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا) أي أنتم شرٌ منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البريء ، ولم يواجههم بهذا الكلام وإنما قاله في نفسه .

(وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ) أي أعلم بما تتقولون وتفترون .

(قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً) استرحام واستعطافٌ أي قالوا مستعطفين : يا أيها السيد المبجل إن أباه شيخ كبير في السن لا يكاد يستطيع فراقه

(فخذ أحدنا مكانه) أي خذ بدله واحداً منا فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة .

(إنا نراك من المحسنين) أي أتمم إحسانك علينا فقد عودتنا الجميل والإحسان .

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ) أي : قال يوسف لهم: نعوذ بالله تعالى معاذا، من أن نأخذ في جريمة السرقة إلا الشخص الذي وجدنا صواع الملك عنده وهو «بنيامين» .

وأنتم الذين أفتيتم بأن السارق في شريعتكم عقوبته استرقاقه لمدة سنة، فنحن نسير في هذا الحكم تبعا لشريعتكم.

(إِذًا لَّظَالِمُونَ) إذا أخذنا شخصا آخر سوى الذي وجدنا متاعنا عنده. والظلم تأباه شريعتنا كما تأباه شريعتكم، فاتركوا الجدال في هذا الأمر الذي لا ينفع معه الجدال، لأننا لا نريد أن نكون ظالمين.

الفوائد :

١-الحلم عند الغضب .

٢-بيان أن شريعة يعقوب أن السارق يسترق سنة .

٣-أن للكبير حقاً يتوسل به .

٤-وضع العقوبة في غير موضعها .